الادب العربي في الهند

للأستاذ محمد يوسف البنوري

ربما يظن أن تقدم الهند في صناعة الأدب العربي والشعر ليس كتقدمهم في علوم الحديث والفلسفة ، والمنطق ، والرياضة ، والطب ، وما إلى ذلك من الفنون العقلية

حقيقة أن تقدمهم في كثير من العلوم العقلية القديمة قد أصبح منذ عهد قديم ، بحيث لا يبارى ولا يجارى ، وأضحت عبقريتهم في علوم الحديث مثلا في العهد الحديث منذ أوائل القرن العاشر للهجرة حين سرى الوهن في المجتمعات العلمية الدينية في البلاد العربية ، غير أن ميزتهم الأدبية وبراعتهم في الشعر العربي على رغم أن البلاد أعجمية قد خفيت على كثير من رجال الادب في البلاد العربية ، مع أن مآثر نهضتهم الراقية المزدهرة في خدمة اللغة العربية وتاريخ اللغة العربية ، والأدب العربي لا تنكر ومقامهم فيها مشهود .

ومن العجيب أننا مهما حدثنا أحداً منهم بشيء عن رقيهم الحاضر في اللغة العربية والأدب العربي ، مع ذلك وهو في حيرة مطبقة يكاد يسرع إلى الرد بالنفي لو لم تحل دونه رزانة العقل

وما من شك في أن العصبية القومية إذا حلت مكاناً رحلت عنه فكرة الوحدة الإسلامية ، فإذا باتت آراء قوم مقصورة على مفاخر قومهم ولم تعد مطالعة مزاياهم الخاصة ، وعزتهم غفلة أو غفوة من أن يقفوا على مزايا إخوانهم في البلاد ، انقطعت صلة الأخوة العالمية ، ورابطة الوحدة ، وتفككت عرى المواساة .

فكرة العروبة التي نشأت حديثاً في الأفكار ، وتتجلى بين حين وآخر على صفحات المجلات ، كما أنها تنتج فوائد خاصة ، تمنع كذلك من ناحية أخرى فوائد هامة بلاد العروبة أحوج إليها منها إلى تلك الفوائد الضئيلة أمامها ؛ فلا يستتب نظام عام بين الأمم الإسلامية المبثوثة في أنحاء البسيطة الذي جاء به سيدنا المرسل إلى كافة الناس بحمدهم وعزهم صنعهم وبيضهم عليه أزكى صلوات وتحيات مباركة . فمن الحتم اللازم أن يكون هناك نظام آخر يلوذ إلى كنفه وأحضانه سائر أقوام الأمة الإسلامية

إصرار كل من المسلمين والمسيحيين على ضرورة الإيمان بحوادث تاريخية معينة ، كما وإن لكل من الديانتين شعائر وقواعد يجب إعادتها كل يوم ، ونحن قد اعتدنا هذا المظهر من الإيمان في الدين ، حتى إنه لم يعد يخطر لنا ملاحظة أهمية ذلك بالنسبة إلى الإسلام والمسيحية .

أنا لست ثقة في البوذية أو الكنفوشية أو الهندوكية ، ولكني أرى وأتصور أنهم لا يتشددون في أهمية الإيمان ، كما يتشدد المسلمون والمسيحيون ، وأرى أن هذا المظهر الذي اتخذته الديانتان أوجد شبهاً كبيراً بين الأمتين

كثيراً ما نسمع أن الإسلام عائق لرقي العرب ، وبدون شك وجد كثير من المسلمين الذين اعتقدوا بأن الأرض منبسطة ، وبأن الاختراعات العلمية من عمل الشيطان ، ولكن يجب أن لا يغرب عن بالنا بأن كثيراً من المسيحيين اعتقدوا نفس الشيء ، وكانوا هم الذين أجبروا غاليلو على التراجع عند ما قال إن الأرض تدور حول الشمس . ومن الإنصاف أن أقرر أن الإسلام دين عملي أكثر من المسيحية من جهات عديدة — فالمسيحية هي التي نطقت بعدم جمع الثروة وفرضت حياة الزهد والتقشف ، ولذلك فإننا نجد قول المسيحيين بأن الإسلام دين غير عملي للإثراء غريباً — وإذا نظرنا إلى مبادئه الأولية يظهر لنا أنه دين عملي أكثر من المسيحية ، لأن المسيح (عليه السلام) لم يتفق والدرهم أبداً

المناخ

كثيراً ما يكون هواء البلاد وحالتها الجوية مفتاحاً لمعرفة أخلاق السكان ، وإذا نظرنا إلى مناخ بلاد العرب نتحقق أنه لا يمكن أن ينبت أمة خاملة . ولا مراء في أن مناخ الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط هو مناخ البحر الأبيض المتوسط ، ولكن إذا ما تجاوزت الشواطئ إلى شرقي لبنان والأردن تجد الجو بارداً جداً ، ويشاهد الثلج والصقيع بكثرة في أماكن عدة ، كما أن الجو غير رطب في الصيف ، فهو بالعكس يلتهب حرارة ، ومثل هذا المناخ يحتاج لأمزجة متينة وأجسام قوية لمقاومته

(البقية في العدد القادم)

جميل قبعين

على حد سواء ، حتى تمنح بلاد العروبة فوائد عظيمة وتنتظم قوى الأمة فى الأنحاء قاطبة ، فتصبح الأمم كأمة واحدة ، وتدعم أركانها بدعائم الأخوة الموطدة كبنيان مرصوص لا يتزعزع بالقواصف الهوجاء والعواطف النكباء

ويكاد يكون عدم وقوفهم على الأدب العربى فى الهند أثرا من آثار هذه الفكرة أو مثلها . كنت أردت أن أكتب كلمة فى الموضوع هذا منذ نزلنا القاهرة من نصف عام ، بل أكثر ، ولكن حالت دونه الأمور التى لأجلها امتطينا صهوة الرحيل إلى مصر ، وكتبت شيئاً فى بعض المجلات والجرائد عن الحركة الدينية والنهضة السياسية فى الهند ، فوددت أن تكون رسالتى هذه إلى إخواننا المصريين وطلبة الأدب بموضوع مقالتى فى مجلة « الرسالة » الزهراء ، وقد أزفت ساعة تقويض خباء الإقامة ، فتكون مقالتى هذه فى الرسالة رسالة وداع ، والأمر كما قال النابغة :

أفد الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

لست أريد فى هذه النهزة ذكر الأدباء والشعراء فى الهند ، أو سرد تآليفهم فى الأدب وتاريخ الأدب العربى وسمو مكانتهم فى التفكير الأدبى ، أو البحث عن شعر نوابغ الشعراء منهم ، والموازنة بين أشعار هؤلاء وهؤلاء فى هذا الصدد ؛ فإن ذلك يستدعى نطاقاً أوسع مما عندى ، غير أنى أذكر شيئاً من شعر بعض علماء المعهد الدينى القديم فى الهند ، وأم المعاهد الدينية فيها (أريديهادارالعلوم) بديوبند بالقرب من عاصمة الهند « دهلى » .

إن هذه الجامعة العربية الدينية ، كما أصبحت مثلا أعلى فى نهضة الدين والعلوم الشرعية ، كذلك أصبحت قدوة فى الحركة الأدبية وثقافة اللغة العربية ، فظلت بقعة ديوبند ، تلك الأريضة الطيبة ، مرتعاً خصباً لطلبة الأدب ، ونبغت فيها نوابغ الأدب وجهابذة اللغة ورجال الشعر . وكثير من السياحين الناطقين بالضاد والزائرين لهذا المعهد من علماء البلاد العربية ، لما نزلوا هناك شاهدوا للأدب فيه وجوهاً باسمة ، وطلعات وسيمة ، ورأوا فيه للشعر العربى ارتياحاً ، ولاقوا فى ترحيبهم نغمات ترق لها قلوب من قصائد عربية أنطقتهم بكلمات طيبة تبدى شعورهم وتأثر نفوسهم بتأثرات دقيقة نحو هذه النهضة

وأخيراً ، هذه البعثة الأزهرية قوبلت هناك بحفاوة واحتفال هز أعطافهم ، وقام خطيبهم رئيس البعثة ، فأثنى جميل الثناء على ما شاهد من نهضتهم وأبدى إحساسه العميق نحوهم على الرغم مما أبداه فى تقرير البعثة لمصالح سياسية أدركناها

هذا المعهد العظيم بلغ شعره ألوف الأبيات عالم من علمائه فى شتى نواحى الشعر ، وهو إمام العصر الأستاذ المحدث الشيخ محمد أنور الكشميرى رحمه الله . ومن الغريب أن هذه الناحية لم يتخذها كمالاً علمياً عكف عليه طول عمره ، أو عرف به ، لا بل مزيته هذه لا تعد مزية إلى ما خصه الله بجلائل النبل وآيات الفضل التى أصبح فيها نسيج وحده . ومع هذا له شعر بارع مطبوع عليه أبهة الشعر القديم بمتانة وفخامة مع انتقاء فصيح الكلمات بانسجام رائق ، مصوغ فى قالب بديع ، فترى له روعة وجمالا فى حسن السبك ، وصياغة الألفاظ ، وأبعد به عن ركاكة فى اللفظ ، أو سماجة فى التعبير ، أو تفكيك فى التركيب والنسق ، أو اختلال فى النظم والانسجام

نعم ، إن شعره ترى فيه بريقاً يتألق من الشعر القديم ، ولمعة من شعر المخضرمين ، وربما تبدو فيه آثار من كلام المولدين مع خفافة فى اللفظ وجزالة فى المعنى

أجل ، إنما الشعر لوعة فكر ، ولمعة خيال ؛ ولكل فكر مترع ، ولكل خيال مذاق ، وذلك أمر لا مندوحة عنه . ومن خصائص شعره أنه قلما تخلو قصيدة له عن عواطف حزينة تثير فى القلوب رقة ، كأن نفسه تذوب حسرات ، ولا يدع ، فكان عميق الشعور ، دقيق القلب ، ومن ثم نجد أكثر شعره وألطف شعره فى الرثاء والبكاء ، فكان كما قال شاعر النيل حافظ ابراهيم :

إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى وجدت شعرالمرانى نصف ديوانى

لا يتسع النطاق لذكر سائر النواحى من شعره إلا أنى أقدم هنا شيئاً من شعره فى الرثاء وغيره لتم نفحاته المسكية على حديقته الزهراء . قال رحمه الله فى رثاء شيخه الإمام الأستاذ محمود حسن الديوبندى المعروف بشيخ الهند .

قفا نبك من ذكرى منهار فند معا
مصيفاً ومشتى ثم مرأى ومسمعا
قد احتفه الألطاف عطفاً وعطفة
وبورك فيه مربعاً ثم مربعا

إلى أن قال :

وكان حشا أذنيّ درّا وحكمة ... فتخرج من عينيّ دمعاً مرصعاً

وقال :

فوافيت دهراً ثم دهراً بعنيتي ... وألقيت عمراً ثم عمرا ممتّعاً

وقال :

فلله درّ الحيّ حـــتى أقامني
أقول وأحكي أن في المض مطمعاً (١)

وقال :

وأذكر أيام المزار وأنثني ... على غصص في القلب حتى تصدّعا

وقال :

يضيق نطاق في المرائي لحقّها ... وثمّ مجال كيفما شئت قاصنعا

وقال في مطلع قصيدة عصماء له في مديح رسولنا العربي الهاشمي عليه صلوات الله وسلامه :

برق تألق موهنا بالوادي ... فاعتاد قلبي طائف الإنجاد (٢)

أسفاً على عهد الحمى وعهاده ... تُولى على الإبراق والإرعاد (٣)

رِيَمٌ تناوح تارة ديم لها ... حتى غدا الأيام كالأعياد

هبّ النسيم على الربى فتضاحكت ... بشرى العميد عرارها والجادي

سنح الظباء فكاد يهلك مغرم ... حور العيون وعطفة الأجياد

وأكاد أشرق بالدموع إذا بدا ... هجر فتبكي الورق بالأسعاد

أسقى التلول وأستحثّ ركائبي ... وجداً على التأويب والإسآد

ومن شعره :

إمن عهد ربع طالما كان أيكا ... أجبت بدمع حين حيا وسلما

ووجد تراه زورة بعد زورة ... على غصص الأزمان نادى وأبرما

وقفت بها صحبي وجددت عهدهم ... عسى إن عهداً ناء أن يتوسما

تهلل وجه الصبح يفتر ضاحكا ... عن الثغر حتى كاد أن يتكلما

تباشير صبح أو تباشير مبسم ... تنفس عن روح ويشر تنسما

وما ثم إلا من حديث قديمه ... وتحديث أشجان ووجد تكلما

وربع قواه كاد مما أبثه ... وأسقيه دمع العين أن يتبسّما

فقدت به قلبي وصبري وحيلتي ... ولم ألق إلا ريب دهر تصرّما

ومن عبرات العين ما لا أسيغه ... ومن غلبات الوجد ما كان مهما

ومن نفثات الصدر ما قد بثثته ... ومن لجمات الدهر ما قد تهجما

فأذكر أزمان الرفاق وأنثني ... على كبدي من خشية أن تحطما

تكففت دمعي أو كففت عنانه ... وصار يجاري الدهر حتى تقدما

فهل ثم داع أو مجيب رجوته ... يجاملني شيئاً دعا أو ترحما

وأظن ، أن في هذا القدر الآن كفاية للبصير . وقد عزم « المجلس العلمي » بالهند أن يجمع كلام إمام العصر المرحوم ويرتب ديوانه ويطبعه نرجو الله له التوفيق .

ومن فحول شعراء هذا المعهد العظيم الشيخ حبيب الرحمن المرحوم مدير المعهد وله شعر رقيق اللفظ منسجم رائق جزيل المعنى . ومن العجيب أنه كان شديد الاشتغال بشئون المعهد الإدارية ولكن مع هذا له شعر غزير يربو على أربعة آلاف بيت في غاية من اللطافة وحسن السبك ودقة النسيج وحلاوة اللفظ يكاد يظن أنه طول عمره كان عاكفاً على الشعر العربي ، ويمتاز شعره عن شعر إمام العصر المذكور بالرقة والانسجام ، وشعر إمام العصر يمتاز بالجزالة وفخامة الأسلوب ، وشعره أقرب إلى شعر المولدين ، كما أن شعر إمام العصر يشبه كلام المخضرمين . وأرى نفسي موفقاً في الفرق بين شعرهما إن قلت إن الشيخ المدير كان يحترى عصره ، وإمام العصر فرزدق وقته . وديوان شعره مطبوع وإن لم تحل أشغالي دون مرامي عسى أن أنتهز فرصة وأقدم شيئاً من شعره لأخوان القاهرة والله الموفق .

محمد يوسف البنوري
الأستاذ بالجامعة الاسلامية بالهند .
وعضو « المجلس العلمي » نزيل القاهرة

(١) المض حكاية صوت يراد بها الانكار ومع هذا لا ينقطع به الطمع في الاجابة ومن هذا يقال في المثل « إن في مض لمطمعا » .

(٢) الوهن : نصف الليل الاعتياد : الانتياب . الطائف الخيال . الانجاد : الذهاب إلى نجد الجادي : الزعفران .

(٣) الرهمة : المطر الضعيف الدائم . العهاد : أول المطر « تولى » « من الولي » المطر بعد المطر . العميد : الحزين التأويب : سير النهار كله الإسآد سير الليل كله .